وأن انتشاره إنّما كان بالسّيف ، فيردُّ هذه التُّهَمَ بحُجَج ناصعة ؛ فالإسلامُ لم يستخدم السّيف إلا بعد أن استنفد وسائل الدّعوة بالكلمة ، وحينئذٍ لا يكون هناك مفرٌّ من اللجوء إلى القوّة ، وهو يُشير إلى ما لقيهُ المسيحيُّون الأوائل من الاضطهاد الذي لم يُحْسَم إلا بالدّفاع المشروع عن النّفس ، ويدافعُ عن مبدأ الجهاد الإسلاميّ الذي التزمَ بقواعدَ خُلقيّةٍ تُرعَى فيها الذّمَم والمواثيق :

قالُوا غَزَوْتَ ورُسْلُ اللّهِ ما بُعِثُوا ... لِقَتْل نَفْسٍ ولا جَاءُوا لِسَفْكِ دَم
جَهْلٌ وتَضْلِيلُ أحْلام وسَفسَطَةٌ ... فَتَحْتَ بالسّيفِ بَعْدَ الفَتْح بالقَلَم
والشّرُّ إنْ تَلْقَهُ بالخَيْرِ ضِقْتَ به ... ذَرْعًا ، وإن تَلْقَهُ بالشّرِّ يَنْحَسِم
سَل المَسِيحِيَّةَ الغَرّاءَ كمْ شَرِبَتْ ... بالصّابِ من شَهَوَاتِ الظّالِم الغَلِم
لَوْلا حُمَاةٌ لها هَبُّوا لِنُصْرَتِها ... بالسّيْفِ ما انْتَفَعَتْ بالرِّفْقِ والرَّحَم
.....
عَلَّمْتَهُمْ كُلَّ شيءٍ يَجْهَلُونَ بِهِ ... حتّى القِتالَ وما فِيهِ منَ الذِّمَم [1]

وفي حديثٍ طويل يُشيد شوقي بشريعة الإسلام ، وما بَنَتْهُ من حضارة قائمةٍ على العدل والعلم والتّسامح ، ويقارن بين حضارة الإسلام وحضاراتِ الأمم القديمة من فُرس ويونان ومصريّين ورومان ؛ فيقول إنّها فاقت كلَّ تلك الحضاراتِ بفضل مبادئ الإسلام ، وتعاليمهِ القائمة على التّوحيد :

شريعَةٌ لَكَ فَجَّرْتَ العُقولَ بها ... عنْ زاخِرٍ بِصُنُوفِ العِلْم مُلْتَطِم
يَلُوح حَوْلَ سَنَا التّوحيدِ جَوْهَرُها ... كالحَلْي لِلسّيْفِ أوْكالوَشْي لِلْعَلَم
نُورُ السَّبِيل يُسَاسُ العالمونَ بها ... تَكَفَّلَتْ بشبابِ الدّهْرِ وَالْهَرَم
لَمّا اعْتَلَتْ دَوْلَةُ الإسلام واتّسَعَتْ ... مَشَتْ مَمَالِكُهُ في نُورِها التّمِم

(١) الصّاب : شجر شديد المرارة ، والغَلِم : الهائج الثائر ، والرّحَم : الرّفق والمغفرة ، الذّمَم : العهود والمواثيق .